جزيرة كريت

وأصول العمران الاوروبي

للسر آرثر أفانس

إن عمراننا الحديث مبنيٌّ على عمران العصر الظراني الحديث الذي استقى من سنن وادي النيل ووادي الفرات . ولقد كان العلماء يحسبون ان العمران اليوناني نشأ دفعة واحدة كما كان القدماء يزعمون ان أثينا ولدت من رأس المشتري وكانوا يقولون ان ما انتبهَ العمران اليوناني من المشرق حديث او مقصور على شيء استعارهُ كالحرف الهجائية وبعض العبارات والتقاليس وكانوا يستثنون مصر الى عصر الاسكندر الا ان المكتشفات الحديثة أوضحت ان نشوء العمران اليوناني لم يكن شيئاً قائماً برأسه إذ قد ثبت ان بلاد اليونان اتصلت بمراكز العمران القديمة شرقاً وجنوباً بانتباسها العمران كريت السابق لعصر التاريخ وبالدرجة السامية التي بلغتها في كل الصناعات والفنون . فان جزيرة كريت وهي حلقة متوسطة بين ثلاث قارات كانت بحكم الوضع الجغرافي مهد العمران الأوربي الحديث والعمران الذي دخلها من هذه القارات وجد فيها عمراناً قديماً جداً كما يستدلُّ من بعض الدلائل الجيولوجية فان تل غوسُس الذي وجدت فيه آثار العمران المينوي (١) يشبه تلال العراق ومصر في كونهِ مؤلفاً من طبقات من أنقاض المباني . وآثار العمران المينوي فيهِ لا تشغل أكثر مما ارتفاعهُ ١٩ قدماً ويعتد تاريخها الى سنة ٣٤٠٠ قبل المسيح على الأقرب . وسمك الانقاض في التل كلهِ أكثر من ٤٥ قدماً . ولم تكن تتراكم بكثرة في العصر الظراني الحديث كما كانت تتراكم بعدهُ ولكن لو فرضنا سرعة تراكمها بقي ابتداء عهدها بعيداً عنا نحو ٩٠٠٠ سنة . فليس في أوروبا آثار من العصر الظراني الحديث أقدم من آثار هذا التل وهي تقسم الى ثلاثة أقسام قديمة ومتوسطة وحديثة والطبقات السفلى تدل على عمران قديم راقٍ بما وجد فيها من فؤوس الصوان المنحوتة والخزف المصقول . فعصر كريت الظراني الحديث متوغل في القدم وآثاره أقدم من آثار العصر الظراني التي وجدت في بلاد اليونان وبر الأناضول ولكن بين هذه وتلك مشابهات كثيرة تدل على أن عمران كريت كان جزءاً من عمران قديم واسع النطاق شامل للقسم الجنوبي من بلاد اليونان وجزائر بحر سفيد وجانب كبير من آسيا الصغرى

(١) نسبة الى الملك مينوس الذي يقال انه ملك كريت وسن شرائعها

ومما يستحق الالتفات في العاديات الفنوسية (١) تماثيل نساء مصنوعة من الخزف كبيرات الأرداف وأيديهن على صدورهن ولهن ميلات في بلاد الساميين وفي الآثار المصرية السابقة لعصر التاريخ وبلاد اليونان. وحيث توجد هذه التماثيل في كريت وآسيا الصغرى يعبدون الآلهة التي يحسبونها أمًّا للبشر ويقرنونها بتمثال عجل. وقد بقيت آثار هذه العادة في الأديان الحديثة. وهناك دليل آخر يدلُّ على الاتصال القديم بين كريت وآسيا الصغرى وهو الفأس المزدوجة التي صارت شعاراً لمعبد قصر غنوسس

ومن المحقق ان سكان كريت الاصليين اقتبسوا كثيراً من عمران غيرهم ولكن عمرانهم بقي راسخاً في نفوسهم وكانوا يكتفون بما يحتاجون اليه مما يجدونهُ عند غيرهم كما يفعل سكان الجزائر عادة. ولذلك كانوا يستفيدون مما يرونهُ عند الغير ولا يتقيدون به كما فعل الفينيقيون فاقتبسوا كثيراً ولكنهم لم يفقدوا استقلالهم

وأول مؤثر أثر فيهم كان من مصر أما المؤثرات الشرقية فجاءت متأخرة. وقد دلني البحث والتنقيب على ان المؤثرات المصرانية وصلت كريت من شمال افريقية قبل ان قامت في مصر دول الفراعنة كما يستدلُّ من شكل الآنية الحجرية واختيار المواد لها حسب اختلاف ألوانها وأنواع الرموز المنقوشة عليها وشكل الختوم المشابهة لما كان يصنعهُ سكان وادي النيل الأقدمون. والمشابهات كثيرة جدًّا تحمل على القول بأن بعض المصريين الاقدمين هاجروا الى كريت حينما تغلب على مصر الشعب الذي منهُ الفراعنة

ثم بقي الاتصال بين مصر وكريت في عهد الفراعنة كما يستدل من وجود المصنوعات المصرية في كريت ومن اهتمام الكريتيين بتقليدها. وقد وُجد نصب مصري في دار قصر غنوسس من عهد الدول المصرية الوسطى. وأغرب من ذلك ما كان لعمران كريت من الأثر البين في عمران مصر كما تدلُّ الدلائل الكثيرة كالكؤوس الميئوية الكثيرة الألوان البديعة المنظر. وأهم منها تأثير الصناعة الكريتية في الصناعة المصرية حتى في القسم الديني منها وتأثير الديانة المصرية في الديانة الكريتية فان إلاهة الكريتيين تشبه إلاهة العالم السفلي المصرية

وقد أثبتت لي مكتشفاتي وأبحاثي الحديثة ان الاتصال كان تامًّا بين كريت ومصر في العصر الميئوي واذا عرفنا ما اقتبسهُ العمران اليوناني من العمران المينوي السابق له اتضحت أهمية هذا الاتصال بمصر ولذلك لم تكن الديار المصرية منفصلة عن غيرها بل كان لها أكبر أثر في العمران الاوروبي

والعمران الراقي الذي نشأ في كريت قبل التاريخ المسيحي بأربعة آلاف سنة وضارع عمران بابل استمر الفي سنة وهو زاهر زاهر وتسلط على كل جزائر بحر سفيد وعلى جانب كبير من البلاد

(١) نسبة الى مدينة غنوسس التي كانت قصبة كريت

بحر افردم . وقد شجعت على تسميته بالعمران المينوي نسبة الى الملك مينوس ملك كريت وشترعها على ما في الاخبار المأثورة ووافقني العلماء على هذه التسمية . ويمكننا أن نقسم زمن هذا العمران الى ثلاثة عصور قديم ومتوسط وحديث وهذا التقسيم يقابل تقسيم الدول المصرية الى ثلاثة أقسام قديمة ومتوسطة وحديثة

ويضيق بي المقام عن وصف هذا العمران الاوربي الأقدم لكثرة مناحيه فقصور الملوك المينويين في أيام عزهم تفوق ما يماثلها من المباني المصرية والبابلية في هندستها وشمولها لما هو نافع مع ما هو جميل عظيم وفيها تحويه من التدابير الصحية . ومايرى في هذه القصور الرحبة الكثيرة الطبقات من المزايا يرى في سائر المساكن القديمة في الجزيرة كلها فقد كان فيها مدن كثيرة غير مدن غنوسس وكان في هذه المدن صناعات بلغت غاية الاتقان أخصها صناعة ترصيع المعادن التي اتقنها الكريتيون فلم يفقهم فيها أحد في عصر من العصور ولا في بلد من البلدان وظهرت بدائع صناعاتهم في القصور بنوع خاص فان سراديبها وحاشيها وأروقتها بزدانة جدرانها بالصور والنقوش البارزة التي تمثل الحيوانات أصدق تمثيل وفي أوضاعها ونصباتها من حسن التنسيق ما لم يشهد العالم مثلهُ من قبل كما يرى في صور موقف الثيران الكبير عند باب غنوسس البحري وفي المناظر المؤلفة في قاعة القصر العظيم

والذي يرى هذه المناظر يدهش من مشابهتها لما هو جار الآن في ترتيب اماكن الخدم وقيام السلالم بعضها فوق بعض واختيار الاماكن الامامية في المشاهد السومية للنساء وصور ثيابهن المتكتكة وكفوفهن وقد لبسنها بأيديهن او علقنها على كراسيهن وأساليبهن وقت الكلام وما يظهر عليهن من النتج والدلال كل ذلك مما لو وجد في صورة من صورنا القديمة لأعجبنا به اشد الاعجاب . وما من مكان وجدت فيه صور تمثل احوال الناس في العصور الغابرة تمثيلاً أكثر انطباقاً على الحقيقة من تمثيل قصر مينوس ولا تستثنى خرائب بمباي . ولا يقتصر الاتقان على الاشياء الكبيرة المهمة بل يتناول ايضاً الاشياء الصغيرة الطفيفة كالحمام الصغير الملاصق لغرفة الملكة ومغطسه الدهون ورقعة الداما المطروحة في الدار وقوارير الزيت الذي يدهن به والخوابي التي كانت تملأ منهُ على مقربة من عرش الملك الكاهن والمقاعد التي يجلس عليها مشيرهُ والغاريت المقدسة على جانبيه وكانت للشعائر الدينية دخل في كل شيء وكانت القصور حياكل للعبادة والقبور مقامات للزيارة . ولعلَّ التديُّن منع المصورين والنقاشين من رسم شيء مخلٍّ بالآداب

وهنا أمرٌ آخر في العمران المينوي لا يصحُّ اغفالهُ فانهُ لما اجتمع هذا المجمع في اكسفورد سنة ١٨٩٦ لما عرفت نتائج النقب في كريت اشار فيه عالم مشهور بعلم العاديات في خطبة لهُ موضوعها « الانسان قبل الكتابة » الى الدرجة العليا من الحضارة التي بلغتها بلاد مينا قبل استنباط الكتابة . أما انا فأرى ان عمران مينا مقتبس من عمران كريت وان الناس كانوا قبل

ذلك يعبرون عن افكارهم باشارات يرسمونها . ثم اننا قد رأينا في آثار كريت القديمة نوعاً من الكتابة وعرفنا درجات نشوئه وارتقائه ووجدنا كثيراً من الختوم المنقوشة وهي قطعة من الخزف المكتوب اكثرها عقود لم تقرأ كتابتها حتى الآن ولكن فيها صور تدل على معنى الكتابة وفيها ما يظهر انهُ ارقام تدل على الاعداد حتى عشرة آلاف وبعض هذه المختوم مختوم وترى تحت التوقيع توقيعات اخرى كأنها تزكية لهُ وهي تدل على انهُ كان في البلاد حكّام ونظام مدقق وتؤيد ما رواه الرواة عن الملك مينوس الذي يقال انهُ تناول الشريعة من الله على الجبل المقدس مثل حمورابي وموسى . واما القطع الخزفية التي وجدت في كريت في العصر المينوي الحديث فمقتبسة أصلاً من الشرق ولعلها مما اقتبسهُ الكريتيون من قبرص لما احتلوها ومن ثمَّ كثر اتصال الشرق بكريت وجلب الكريتيون منهُ المركبات واقتدوا بهِ في استعمال الختوم الاسطوانية

ولما اتسع نطاق العمران المينوي حتى بلغ سواحل فينيقية وفلسطين كما بلغ قبرص كان قد تمكن من بلاد اليونان وبلغ صقلية واسبانيا والجزائر المجاورة لها والظاهر انهُ تناول شيئاً مما استبده من بر الاناضول . وبعض اليونان الآريين اتصلوا بالعمران المينوي وهو في اوج مجده كما يستدل من اشعار هوميروس فان الاسلحة التي وصفها مينوية وترس اكلس بما عليه من الصور البديعة كان مثالاً لصناعة المينويين المتقنة والقيثار الذي كان الشاعر يغني عليهِ من اختراع اهل كريت واذا التفتا الى الثمائر الدينية وجدنا الهياكل اليونانية مشتقة من المباني المينوية ورسوم واجهاتها القديمة مقتبسة من واجهات المباني المينوية . وأقدم الالهات اليونانية مثل اورنا الاسيرطية توصف باوصاف مثل اوصاف الام المينوية

وبعض اصول هذه الحضارة القديمة بقي في بلاد اليونان وبعضها دُفن في مهده ثم أينع في السواحل والجزائر الشرقية حيث كان العمران المينوي ثم اعادهُ الفينيقيون واليونانيون الى مواطنهِ وبقي جانب كبير منهُ رغماً عما حاق بالمملكة المينوية من الخراب قبل التاريخ المسيحي باثني عشر قرناً ورغماً عما فعله الغزاة الذين هاجموها من الشمال فبقي عليهِ العمران اليوناني وأضاء مصباحهُ مرة اخرى بالنور الذي انبعث منه في زمن سكان الكهوف الذين كانوا في العصر الظراني الاقدم

وجاء الرومان بعد ذلك فاستلموا الميراث الذي ورثهُ اليونان من كريت وبنوا عمرانهم على أسس واسعة بجملها عامًّا شاملاً

فان كانت الحضارة الاولى التي وجدت في عصر الرنة قد شملت أكثر من شعب واحد واستجمعت أصولاً مختلفة من جهات شتى فاحر بعمراننا الذي انشأ من العمران اليوناني الروماني أن يبلغ درجة سامية من الاتساع والارتقاء ولا ينحصر في بقاع ضيقة او يكون ملكاً خاصًّا بشعب دون آخر . ومهما تعددت الشعوب والالسنة فلسان اهل العمران واحد ومصالحهم مشتركة